محمود الصباغ

الذكر

في القرآن الكريم والسنة المطهرة

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

(الأحزاب ـ ٣٥)

الإهداء

إلى إخوانى فى الإنسانية :

مسلمهم ومسيحيهم ويهوديهم وكافرهم ... آهدى هذه الرسالة ... ففيها النجاة مما تعانيه البشرية من آلام ، مادية ونفسية ، فى الدنيا ، .. وفيها الطريق إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فى الآخرة ، .. لأنها تبين الطريق إلى حب الله القوى القادر .

من تمسك بما جاء فيها ، نجا وسعد بإذن الله ، .. ولهذا آسميتها « طوق النجاة للبشرية » .

محمود الصباغ

مقدمة

أسماء الله الحسنى

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ومن دعا بدعوته ومن والاه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد :

فلعل أروع ما يمكن أن يقدم به كتاب فى الذكر هو قول ربنا جل وعلا : **« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . . . »** . (الأعراف — ١٨٠) ، وحديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة . إنه وتر يحب الوتر : هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعال ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » .

رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما إلى قوله : « يحب الوتر » وما بعده حديث حسن رواه الترمذى وغيره . وقد جاء فى رواية فى الصحيح : « من حفظها دخل الجنة » .

قوله : « المغيث » روى بدله « المقيت » ، و « الرقيب » روى بدله « القريب » ، و « المتين » روى بدله « المبين » والمشهور « المتين » .

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يذكرنا بها ، ويرزقنا إحصاءها ، وحفظها ، وأن يعلمنا معانيها ، فيقوى بها يقيننا ، ويزداد إيماننا ، وأن يوفقنا للتخلق بما توحى به هذه الأسماء الحسنى من رغبة ورهبة ، وجلال للواحد القهار إنه سميع مجيب .

ولا شك أن الذكر مع الفقه ، واستحضار العقل والفكر ، خير من الذكر ، بلا فقه ولا فكر ، ولذلك حرصت على أن أبدأ الكتاب ببابين : أولهما عن ذكر الله عامة ، والثانى عن ذكر الله فى الشريعة الإسلامية ، فجاء الكتاب فى سبعة أبواب :

الباب الأول : ذكر الله :

وقد قصدت به التعريف بالذكر وفائدته وموجباته ، وصوره المختلفة لدى كافة المخلوقات فى الكون .

الباب الثانى : الذكر فى الشريعة الإسلامية :

وقد قصدت به التعريف بتشريع الذكر على المسلمين والأحوال التى شرع الله فيها لهم الذكر مع بيان فضله ، وصوره وأثره وآدابه .

الباب الثالث : الذكر المضاعف وجوامعه :

وقد قصدت به التعريف بالذكر الجامع الخفيف على اللسان الثقيل فى الميزان كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخدامه فى إنشاء الوظائف والأوراد التى يمكن أن يعلمها المرشدون من الدعاة والصالحين لمريديهم ، وضربت مثلاً عملياً بالوظائف والأوراد التى علمها إمام هذا

الجليل فضيلة الإمام الشهيد الأستاذ حسن البنا لإخوانه فى الدين ، رحمه الله رحمة واسعة وأجزل جزاءه .

الباب الرابع : الدعاء والاستغفار :

فهما مخ العبادة والطريق إلى سعة الرزق وتفريج الهم والخروج من كل ضيق .

الباب الخامس : الذكر فى العبادات :

وقد قصدت به أن أوفر للقارئ الكريم مصدراً يجمع نصوص الذكر الواردة فى كل العبادات المفروضة وهى الصلاة والحج والزكاة والصدقات والصيام والجهاد فى سبيل الله ، ليسهل عليه الإحسان فى أدائها على نحو يحبه منه ربه ويرضى .

الباب السادس : الذكر فى الحالات العارضة :

وقد قصدت به جمع الكافى من الأذكار الواردة فى المناسبات المختلفة التى لا تتكرر فى فعل الإنسان كل يوم .

الباب السابع : الذكر فى أعمال اليوم والليلة :

وقد قصدت به جمع الكافى من الأذكار الواردة فى الأعمال التى تتكرر فى فعل الإنسان يومياً فى ساعات الليل والنهار المختلفة .

ولابد لى أن أنوه هنا أن كل ما جاء فى هذا الكتاب من نصوص — قد نقل عن القرآن الكريم وتفاسيره ، وكتب الحديث الشريف المشهورة ، وأن كتاب الأذكار المنتخبة فى كلام سيد الأبرار صلى الله عليه وسلم للإمام الحافظ شيخ الإسلام محيى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف النووى الدمشقى كان بمثابة المرشد الموجه لاختيار أبواب هذا الكتاب والكثير من الأذكار المأثورة الواردة فيه ، وأن ما جمعه فضيلة الأستاذ السيد سابق فى كتابه « فقه السنة » من أذكار وأدعية مأثورة قد يسر لى ما وفقنى الله فيه فى الباب الخامس « الذكر فى العبادات » ، فجزاهما الله خير الجزاء .

وقد حرصت بفضل الله على أن أوثق معظم ما جاء فى هذا الكتاب من آيات كريمة وأحاديث شريفة حتى يسهل للقارئ الرجوع إلى مصادرها الأصلية من الكتاب والسنة ويستيقن أنه يتبع ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأمر ربه من غير ابتداع أو تحريف .

وإننى إذ أدعو الله تبارك وتعالى أن يوفق الذاكرين من قراء هذا الكتاب إلى الذكر الخالص لله رب العالمين على أحسن صورة يتقبلها ربنا ويرضى أسألهم خالص الدعاء لى وللمسلمين فى كل وقت وحين بالعزة والسلامة ، والغفران ، وأن يتجاوزوا عن كل ما يجدون فيه من قصور ، فالكمال لله وحده ، وهو الهادى إلى سواء السبيل ، وحسبى أننى قدمت جهد العاجزين فى أفضل ميدان ، وأنا الفقير المفتقر إلى رضوان رب العالمين ، والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم .

محمود الصباغ

الباب الأول
ذكـــــــر الله

تعريف الذكر :

الذكر لغة يعنى الصلاة لله تبارك وتعالى ، والدعاء ، ويقال : ذكر الله بمعنى سبحه ومجده ، وذكر اسم الله بمعنى أنه نطق به ، وذكر القوم بمعنى أنه وعظهم .

وقد جاء فى فقه السنة لفضيلة الشيخ السيد سابق ، أن الذكر هو مايجرى على اللسان والقلب من تسبيح الله تعالى وتنزيهه وحمده ، والثناء عليه ، ووصفه بصفات الكمال . ونعوت الجلال والجمال .

فائدة الذكر :

الذكر تنبيه للعقل والقلب والجوارح أنها من مخلوقات الله القوى العادل الرحمن الرحيم ذى الجلال والإكرام ، وتوعية لها أنه ما من دابة صغيرة ولاكبيرة إلا هو آخذ بناصيتها ، فإذا انتبه العقل ووعى القلب ، التزمت الجوارح بالطاعات ، وانتهت عن المعاصى والمنكرات . وصدق الله العظيم القائل : « **. . . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** » . (العنكبوت — ٤٥)

فالإنسان بطبعه معرض إلى غواية الشيطان فى كل حركة وفكرة ، لا ينهاه عن اتباعه إلا مداومة ذكره لله تبارك وتعالى فى كل حين ، حتى فى الصلاة ، فالإنسان معرض لوسوسة الشيطان بما يلهيه عن الذكر وهو فى الصلاة ، فلا يعى كم صلى أو بماذا قرأ !! لا يحفظه من ذلك إلا استحضار القلب أثناء الصلاة بمداومة ذكر الموقف بين يدى القوى القهار .

فإذا كان ذلك هو الحال فى الصلاة بأوقاتها المعدودة ، وفتراتها القصيرة ، من ساعات الليل والنهار ، التى يتفرغ فيها الإنسان لعبادة الرحمن ، فكيف

إذا كان العبد منشغلا بأمور الدنيا ، وأحوال المعاش ؟ إن مداخل الشيطان من خلال هذه الأمور أكثر عدداً وأوسع باباً ، فحب الدنيا ، وحب الغلبة وحب النصر ، وحب الكسب ، وحب النفس ، كلها مداخل واسعة ، يجد فيها الشيطان ألف وسيلة ووسيلة ، ليفلسف الضلال والانحراف ، ويجر العبد إلى مهاوى الغواية والفساد ، من حيث يدرى أو لا يدرى ..

فقد يأتى الشيطان إلى العبد من مداخل العبادة والصلاح ، ويجره دون أن يدرى إلى مهاوى المعصية والضلال ، لا يحفظه من ذلك إلا مداومة ذكره لله تعالى .

وحين ينفتح جنان الذاكر لربه ، ويلهج بذكره لسانه تزكو نفسه ويتطهر قلبه ويستيقظ ضميره ويمده الله بنوره ، فيزداد إيماناً إلى إيمانه ، ويقيناً إلى يقينه ، حتى يطمئن بذلك قلبه ويسكن فؤاده : « **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » . (الرعد — ٢٨)

وإذا اطمأن القلب للحق ، اتجه إلى المثل الأعلى ، وشق طريقه إليه ، فى قوة وثبات ، دون أن تلفته عنه نوازع الهوى ولا دوافع الشهوة ، ومن ثم عظم أمر الذكر وجل نفعه فى حياة الإنسان .

موجبات الذكر :

إن الإنسان مدين بوجوده لله تعالى ، ربه وخالقه ، ومدين له بنعمه التى لا تعد ولا تحصى لقوله تبارك وتعالى : « **... وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** » . (إبراهيم — ٣٤)

فمن ينظر فى أمر نفسه يجد أنه لا يتحرك حركة ، ولا يسكن سكنة إلا بنعمة من نعم الله عليه ، فحركات الأصابع والأيدى ، والأذرع ، والأعين ، والأرجل ، واللسان ، كلها نعم من نعم الله تبارك وتعالى ،

وخضوع هذه الأعضاء للإنسان فى أداء ما يحتاج إليه من الأعمال ، فى سهولة ويسر ، ودون أدنى تمنع أو تأخير هى من تمام هذه النعم عليه .

وحركات القلب والرئتين والمعدة والأمعاء المسخرة للإنسان بأمر ربه دون أن يكون له فيها إرادة ، هى نعم أعظم وأجل ، فيها يعيش الإنسان

وبغيرها يموت ، وهى تؤدى واجبها فى دقة وانتظام من غير أن يكون للإنسان فى هذا الأمر الخطير حول ولا قوة .

والهواء والماء والنباتات والسوائل والحيوانات والجمادات والغازات ، كلها نعم من نعم الله تبارك وتعالى على الإنسان ، تتفاوت درجاتها ، فمنها من لا يعيش الإنسان إلا به كالهواء والماء ومنها ما يتمم بعضه بعضاً ليعيش هذا الإنسان فى رغد وهى النباتات - السوائل والحيوانات والجمادات والغازات

والشمس والأرض والنجوم والكواكب نعم من نعم الله على الإنسان فالشمس تمنح الإنسان الحرارة والطاقة اللازمة له ليعيش ، وكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس يولدان الليل والنهار والفصول الأربعة واختلاف الأجواء على سطح الأرض من برودة فى القطبين إلى حرارة وأمطار عند خط الاستواء مع تدرج بين الاعتدال والحرارة والبرودة فيما بينهما ليتحرك الإنسان على سطح الأرض حيث يحب من طقس ومناخ وقتما شاء وحيثما شاء .

وتتحرك الرياح بفعل الاختلاف فى درجات الحرارة على سطح الأرض محملة ببخار الماء الصاعد من سطوح المحيطات والبحار ، فيتكيف الطقس وفقاً لتضاريس سطح الأرض ومواقعها من الدورة العامة للرياح ، وقربها وبعدها من السطوح المائية إلى أجواء متعددة تتعدد معها ألوان الناس وطبائعهم وأنشطتهم كما تتعدد على سطح الأرض وفى مياهها أنواع الطيور والحيوانات والأسماك والمحاصيل الزراعية ، بما يفى بكل الأغراض التى تحقق للإنسان العيش والرفاهة ، عسى أن يعتبر فيذكر ربه القائل :

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . (النحل ٦٦ — ٦٩)

ثم هو يكتسى من أصواف الحيوانات وحرير الحشرات ومن تصنيع النباتات وغيرها ، ويأوى فى المنازل والقصور التى تبنى من أحجار الأرض

ويتزين ويتسلح من معادنها وحديدها . على هذا النحو الرائع الذى يصوره لنا القرآن الكريم فيلزمنا الحجة الدامغة حيث يقول ربنا جل وعلا :

« والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون . فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون » . (النحل ٨٠ — ٨٣)

وقوله تعالى وهو يُقيمٌ نعمة واحدة من نعمه على الناس فيرفعها إلى مراتب الرسالات والكتب المنزلة لقوم يتفكرون : **« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز » .** (الحديد — ٢٥)

وكأن التفكير فى نعمة الحديد وحدها وما يجلبه للإنسان من خدمات وخيرات كاف ليؤمن الإنسان ويحسن إيمانه فينتصر لربه سراً وعلانية ويجتاز اختبار المجاهدين الصادقين .

أما النجوم والكواكب فإنها تزين للإنسان السماوات السبع وتهديه إلى المواقيت والجهات ليلا ونهاراً . على النحو الذى يذكرنا به القرآن الكريم فيقول جل وعلا : **« ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين » .**
(الحجر — ١٦)

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ... » . (ق — ٦)

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » . (الصافات — ٦)

« فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . (الأنعام ٩٦ — ٩٧)

وغير خاف أن أساس حساب السنين هو الشمس وأساس حساب الشهور هو القمر فى الشهور القمرية والشمس فى الشهور الشمسية .

هذه كلها نعم يُقيم بها ربنا تبارك وتعالى علينا الحجة لنؤمن به ولا نكفره ولنحمده ونذكره ونشكره ، ونتوب إليه ونستغفره ونعلم إنه هو البر الرحيم ، وأنه لا إله إلا هو سبحانه هو الخلاق العظيم .

ولقد أفاض ربنا جل وعلا علينا بما علمنا من النعم ، وهو جل وعلا قدير بأن يزيد من فضله ما يشاء فيمنحنا من النعم ما لم نعلم وما هو به جد عليم انظر يا أخى تصوير القرآن الكريم لنعمة تيسير السفر والتنقل ، مع الإشارة إلى ما تضفيه هذه النعمة على الإنسان من زينة حيث يقول ربنا جل وعلا : **« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون »** . (النحل ٥ — ٨)

ولقد رأينا بعد نزول القرآن الكريم من خلق الله ما لم يكن يعلمه الأولون من وسائل النقل كالسيارات والطائرات والغواصات والصواريخ مصداقاً لقوله تعالى : **« ويخلق ما لاتعلمون »** . ثم يستطرد القرآن الكريم ليبين للناس بعض فضل الله عليهم : **« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم »** . (النحل ١٠ — ١٨)

عجز الإنسان عن الوفاء بحق الشكر والذكر :

إن نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى ، فى كل همسة أو صيحة يسمعها نعمة ، وفى كل نفس يتنفسه نعمة ، وفى كل مضغة يمضغها نعمة ، وفى كل نظرة ينظرها نعمة ، وفى سريان اللعاب نعمة ، وفى جريان الدم نعمة ، وفى العقل نعمة ، وفى الدين نعمة . إلى آخر ما لا يمكن أن يحصيه العد ، وما يعجز عنه البيان .

وإذا كانت نعم الله التى لا يحصيها العد سابغة علينا فى كل لحظة ، سواء كنا قياماً أو قعوداً أو على جنوبنا أو كنا فى حالة يقظة أو غفوة ، فإن من حسن الوفاء لله تعالى أن لا يتوقف ذكرنا له جل وعلا لحظة واحدة ، فهو المنعم المتفضل بكل هذه النعم دائماً وأبداً .

وإذا سأل الإنسان نفسه عن تقييم نعم الله تبارك وتعالى عليه ليوفيها حقها فى الشكر والذكر والتمجيد . فهل يستطيع أن يقيمها ؟ وإذا حاول ذلك فبكم يقيم نعمة النطق ؟ وبكم يقيم نعمة العقل ؟ وبكم يقيم نعمة القوة ؟ وبكم يقيم نعمة الهضم ؟ وبكم يقيم نعمة التنفس ؟ وبكم يقيم نعمة السمع ؟ وبكم يقيم نعمة البصر ؟ وبكم يقيم كل نعمة أخرى من هذه السلسلة اللانهائية من النعم ؟

فإذا عجز الإنسان عن مجرد العد والتقييم ، فهل يستطيع الوفاء بواجب الشكر ؟ وكيف يمكن أن يفى بواجب الشكر على نعم الله إذا كان التوفيق إلى شكره فى حد ذاته نعمة كبرى تورث الخلود فى جنات النعيم ؟ فبالشكر والذكر يرتفع الإنسان إلى درجات الأولياء والصالحين ، ويقترب من منازل الأنبياء والصديقين ، وينعم بالطلعة النورانية إلى الذات العلية فى الفردوس الأعلى عندما يتجلى عليه رب العالمين .

قال تعالى : « **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** » . (إبراهيم — ٧)

إذن فالوفاء بحق الشكر والذكر لله رب العالمين وإن كان أملا يحرص عليه الصالحون إلا أنهم لن ينالوه فهو أكبر من قدراتهم وطاقاتهم ، ولا بد

لهم من أداء ما يستطيعون والاكتفاء بالدعاء والاستغفار عما لا يستطيعون عسى أن يقبل الله دعاءهم ويغفر لهم عجزهم ، وهو أرحم الراحمين . .

تعويض العجز عن الوفاء بحق الشكر والذكر :

لقد رسمت لنا السنة المطهرة كيف نعوض عجزنا عن الوفاء بحق الشكر والذكر نطقاً باللسان فأبانت لنا طريقين :

أولا : الاستغفار صيغة من صيغ الذكر :

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب استغفاره فى اليوم مائة مرة ، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »؟

وفى هذه السنة المطهرة الدليل على أن استغفار العبد لربه يعوض عجزه عن الوفاء بحق شكره وذكره . فالإنسان إذا استطاع أن يحرك لسانه بالشكر والذكر وهو يقظ ، فإنه لا يستطيع ذلك إذا ما غشيه النوم ، كما أنه لا يستطيع فى اليقظة أن يستمر لسانه ذاكراً شاكراً ، لأن عليه أن يسعى لرزقه ، وأن يتحدث مع الناس ، وأن يأكل وأن يشرب مما يشغله عن الاستمرار فى الذكر باللسان وهو يقظ .

ولقد عفى الله عن المؤمنين فيما عجزوا عنه إذا ماأدوا غاية الجهد فيما قدروا عليه لقوله تبارك وتعالى : « **لايكلف الله نفساً إلاوسعها لها ماكسبت ...** » . (البقرة — ٢٨٦)

وفى هذا سعة للناس وأى سعة ، ورحمة ليس بعدها رحمة ، لندرك أننا ان ندخل الجنة بأعمالنا ، فهى مهما تحسنت وتعددت لا تعد شيئاً أمام فضل ربنا ونعمه وإنما ندخلها إذا ما أدركتنا رحمة الله فقبل منا استغفارنا ودعاءنا عما قصرنا فيه عن عجز ، وضاعف حسناتنا على ما أتيناه من عمل صالح ، إنه غفور كريم .

ثانياً : الذكر بالقلب والجوارح :

قد يعوض الله الصالحين عجزهم عن مداومة الذكر باللسان ، فيهم قلباً ذاكراً سواء فى النوم أو فى اليقظة ، أو فى الصمت أو فى الحركة ،

وذلك إذا داوموا التفكر فى نعم الله وفى جلاله ، حتى يصدق يقينهم ، ويتعمق إيمانهم ، فإذا ماصار القلب ذاكراً ، خضعت له كل الجوارح ، فلا تتحرك إلا لطاعة ولا تفر إلا من معصية .

أى أن الذكر كما يكون باللسان تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً ، يكون بالقلب تفكراً فى عظمة الخالق جل وعلا ، ونظراً فى الدلائل القاطعة بوحدانيته وجلاله ، كما أنه يكون بالجوارح إذا ما استعملت فى الأغراض التى خلقت من أجلها سواء كانت عبادات كالصلاة وسائر الطاعات أو كانت أعمالا نافعة تحقق الخير لصاحبها أو للمسلمين ، أو تمنع الشر عن صاحبها أو عن المسلمين ، فلذلك خلقها ربها ، وتكون طاعة الإنسان فى استعمالها فيما خلقت له ذكراً وشكراً ، ويكون استعماله إياها فى معصية الله جحوداً وكفراً .

فأما من اجتهد فى دوام التفكر فى نعم الله وفى فضله ، فهو ذاكر بفكره لربه ذكراً يهديه إلى عمق الإيمان وصدق اليقين ، وبذلك ينتظم ذكر قلبه ويضطرد ، وتخضع له جوارحه ولا تعصى ، ويحق فيه وصف الحق تبارك وتعالى :

« . . . والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » . (الأحزاب — ٣٥)

« . . . وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ... » .
(الإسراء — ٤٤)

إن هذا النص العام الشامل الذى تنتظم فيه كل المخلوقات سواء كانت من الجوامد أو النباتات أو السوائل أو الغازات أو الأحياء أو الأموات ، ليدعونا أن نفكر بعمق لفهم الكيفية التى يجرى بها هذا التسبيح عسى أن نوفق إلى فقهه فنستيقن بصدق هذا القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل العزيز الحميد .

إن الإعمال العلمى للعقل وهو ينظر فى هذه الآية الكريمة ليدرك كيفية اشتراك كل المخلوقات من جوامد وحيوانات ونباتات وسوائل وغازات وأحياء وأموات فى عمل واحد هو التسبيح بحمد ربها ، يدعونا إلى البحث

عن ظاهرة مشتركة بين كل هذه المخلوقات يمكن فقهها تسبيحاً وتمجيداً لله رب العالمين :

ولقد وفق الله تبارك وتعالى علماء هذا العصر الحديث وهم يبحثون فى أصل المادة بحثاً علمياً صرفاً ، لا تقف وراءه نزعة دينية ، أو دفعة روحية إلى الكشف عن هذه الظاهرة المشتركة بين كل هذه المخلوقات ، التى لا تختلف باختلاف طبيعتها سواء كانت حياً أو ميتاً ، جامداً أو نباتاً أو سائلا ، أو غازاً فوجدوا أنها تتكون جميعاً من ذرات . فلما بحثوا فى تركيب هذه الذرات وجدوها جميعاً تتكون من نواة صغيرة فى المركز تدور حولها كهارب متناهية فى الصغر ، فى مدارات محددة بأمر ربها ، دوراناً مستمراً رتيباً دون توقف أو خلل ، كما وجدوا أن ذرات كل المخلوقات متحدة فى المادة التى خلق الله منها هذه النوايات والكهارب ، وأن الفرق بين ذرات أى مخلوق وأى مخلوق آخر سواء كان جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو سائلا أو غازاً أو حيا أو ميتاً لا يكون إلا فى عدد الكهارب التى تسير فى كل مدار وفى الوزن الذرى لكل مادة . وهذا يعنى أن المخلوقات جميعاً قد خلقت من أصل واحد ، هو الذرة وأن طبيعة جميع الذرات متحدة لا فرق بين ذرات مادة ومادة أخرى إلا فى وزنها أو عدد الكهارب التى تدور فى مداراتها ، فإذا نظرنا إلى جميع الذرات التى خلقها الله لوجدناها وكأنها مجتمع واحد ذو أصل واحد كالمجتمع البشرى لكل

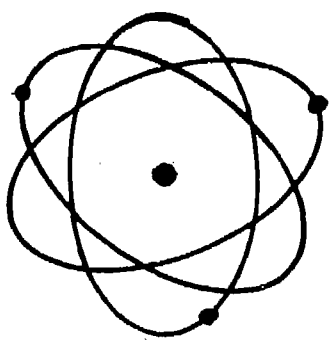

الشكل رقم (١)

من أفراده عينان ولسان وشفتان ورجلان وذراعان لا فرق بين إنسان وإنسان في مادة الخلق إلا اللون والحجم والوزن ، وهي فروق ظاهرية لا تغير في جوهر المادة ولا في عناصرها .

ألا يدل هذا الكشف العلمي الحديث دلالة قاطعة على وحدة الخالق ؟ « **. . . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » ، فلو تعددت الآلهة لاتخذ كل إله لنفسه مادة مختلفة يصنع منها مخلوقاته ، حيث يستحيل تعدد الآلهة مع وحدة المادة .

وإذا نظرنا في هذه الحركة الرتيبة المنتظمة التي لا تهدأ ولا تتوقف لكهارب الذرات حول نواتها لرأينا الطاعة والانصياع لأمر الخالق العظيم متجسدة للعيان ، لا شك فيها ولا مراء . وهذا هو صلب العبادة والذكر الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى : « **. . . وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . .** » . (الإسراء — ٤٤)

الاسترشاد بأقوال المفسرين لمعنى الخضوع والانصياع :

يقول الحق تبارك وتعالى : « **ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال** » . (الرعد — ١٥)

وهو نص عام شامل لكل المخلوقات العاقلة على ظهر الأرض بما في ذلك المؤمنون والكافرون والطائعون والعصاة من الإنس والجن على السواء ، فكيف واجه المفسرون هذا النص الحكيم .

لقد أشار تفسير الخازن في معنى هذه الآية الكريمة إلى قولين :

الأول : هو معنى السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الأرض ، وعلى هذا القول اقتصر معنى الآية على سجود المؤمنين طوعاً والمنافقين كرهاً .

أما القول الآخر : فقد فسر السجود بمعنى الانقياد والخضوع وترك الامتناع ، وعلى هذا القول يكون كل من في السماوات والأرض ساجداً لله ، لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل فهم خاضعون منقادون .

ولعل أظهر صور الانقياد والخضوع وترك الامتناع فى المخلوقات جميعاً هو هذه الحركة الرتيبة المنتظمة الدائمة لذراتها ، بأمر ربها دون أن يكون لأى من هذه المخلوقات على هذه الحركة إرادة أو مشيئة ، فهى تتحرك جميعاً بأمر ربها ومشيئته لا شريك له . وعلى هذه الصورة يكون فهمنا لتفسير المفسرين للسجود بالانقياد والخضوع وترك الامتناع فهماً صحيحاً يتفق مع تفسيرنا لقوله تعالى جل وعلا : « **ولله يسجد من فى السماوات والأرض . . .** » ، « **. . . ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . .** » حيث لا سجود بغير تسبيح لربنا الأعلى . .

كما أن من الصور الظاهرة للانقياد والخضوع وترك الامتناع فى المخلوقات الحية ما سبق أن أشرنا إليه من حركات لا إرادية فى الأجسام الحية سواء كانت كافرة أو مؤمنة ، عاقلة أو غير عاقلة .

فدقات القلب وحركات الدم والأحشاء والمعدة والأمعاء والكبد والكليتين والتنفس والرئتين ، كل ذلك يسير فى دقة رتيبة ونظام معجز بأمر ربها وخالقها ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد . وتدلنا هذه الصورة من وحدة النظام فى كل الأحياء أيضاً على وحدة الخالق حيث يستحيل تعدد الآلهة مع وحدة النظام فى كل الأحياء من هذه المخلوقات المتعددة ، كما يدلنا استمرار الحركة الرتيبة الدقيقة دون أن يكون لصاحب الجسم إرادة أو مشيئة فى هذه الحركة على ربانيتها ، فهى جميعاً فى حالة الانقياد والخضوع وترك الامتناع التى حددها المفسرون لتعريف السجود وما به من تسبيح . وهذا هو صلب العبادة والذكر الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى : « **. . . وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . .** » . (الإسراء — ٤٤)

إذن فالناس كل الناس ، مسلمهم وكافرهم عابدهم وعاصيهم فى ذكر دائم وسجود قانت بكل حركات الانقياد والخضوع وترك الامتناع الكائنة فى ذرات أجسامهم ودقات قلوبهم وحركات دمائهم وأحشائهم إلى غير ذلك مما سبق تفصيله من هذه الحركات المنتظمة الرتيبة بأمر ربها

رضى أصحابها أم كرهوا حيث لا سلطان لأحد منهم على هذه الحالة من حالات السجود والتسبيح القائمة فى كيانهم كله وهم لا يعلمون .

فإذا مات الكائن الحى توقفت حالة السجود بدقات القلوب وحركات الدماء والأحشاء وبقيت رفاتهم فى سجود دائم بحركات الذرات التى لا تفنى إلى يوم البعث والنشور ، وإن ذهبت هباء فى الفضاء أو توزعت أشتاتاً فى جوف الأرض أو أعماق المحيطات .

وفى حدود هذا الفهم الواضح تنحصر حالة الكفر والمعصية فى حالات النشاط الإرادى للمخلوقات العاقلة وحدها ، لمن زاغت قلوبهم عن الهداية فضلوا السبيل ، فإذا ما ضل مخلوق عاقل أو عصى ربه كان عمله هذا أشبه بمن ألقى نقطة من حبر داكن على ثوب ناصع البياض فأتلفته وأذهبت رونقه وبهاءه عامداً متعمداً ، كارهاً للجمال الماثل فى سجود ذرات جسمه ودقات قلبه وحركات دمائه وأحشائه ، أن يتلألأ ، ولهذا البهاء الماثل فى الانقياد والخضوع وترك الامتناع أن يتألق ، فحق عليه حينئذ الغضب والحرمان من صنائع هذا الثوب الجميل ، والبغض والنفور من كل من شاهد هذا الفعل الثقيل .

من ذلك التشبيه البسيط يتضح لنا أن ما كتبه الله على الكفار والعصاة فى الآخرة من عذاب شديد ، هو عدل لا ظلم فيه ، فقد شذوا عن ذواتهم وشوهوا روعة الجمال الذى خلقه الله فى انصياع أبدانهم بما فى ذلك ذرات أجسامهم ، ونكثوا بما استودعوا من أمانة الحق والعدل والصدق فلم يوفوها حقها ، وانقلبوا جاحدين ، فحق عليهم غضب من ربهم وعذاب أليم وصدق الله العظيم القائل : « **... وماظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** » . (النحل — ١١٨)

« **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** » . (الذاريات ٥٦ — ٥٧)

ورد فى تفسير الخازن أن بعض المفسرين قصروا هذه الآية الكريمة على المؤمنين من الإنس والجن حيث ظنوا أن غير المؤمنين منعدموا الصلة بالعبادة ، وهو خلاف ما أوضحناه فيما سبق ، فالذكر وهو مخ العبادة